

الفصل العاشر

فلسفة التواصل عند هابرماس

أصبح مفهوم التواصل من المفاهيم المركزية المتداولة في الفلسفة المعاصرة. إذ لم يعد الاهتمام بالتواصل منحصرًا في المجال التداولي المرتبط بتبادل المعلومات و تقنيات تبليغها و إيصالها، بل أصبح يشكل نظرية علمية و فلسفية مستقلة بذاتها. و تعد مرجعية هابرماس الفلسفية دليلا على هذا التحول. أنها مرجعية استفادت من نظريات العلوم الاجتماعية التي كانت سبابة إلى التمهيد لذلك التحول عندما ركزت على أن الأنا أو الهوية الذاتية هي حصيلة تفاعل رمزي مع الآخرين.

سنسلط الضوء، في هذه الورقة، على مشروع هابرماس الرائد، في الفلسفة النقدية الألمانية المعاصرة من خلال التركيز على الهم الذي حرك الرجل و هو: كيف يكون الاندماج الاجتماعي ممكنا؟ باعتباره الإشكال الذي اعتزمت فلسفة التواصل لدى هابرماس الإجابة عنه.

لا ينبغي الاعتقاد من عنوان هذه الورقة أن هابرماس يتناول مسألة التواصل كما لو كانت موضوعا فلسفيا، بالمعنى الحرفي للكلمة. بل يتناولها من منظور السوسيولوجيا أو علم الاجتماع، بوصفها فعلا اجتماعيا، لا فعلا له صلة كلية بالوعي الانساني. و بهذا المعنى يصح القول: أن هابرماس ينتصر للنظرية الاجتماعية على حساب فلسفة الوعي. إذ ثمة فرق بين تناول التواصل من منظور الفاعل للتواصل، و بين تناوله كما لو كان فعل حوار أو تحاور تتدخل فيه أطراف متعددة^(١).

و بهذا الخصوص يعترف هابرماس بفضل علماء الاجتماع في بلورة هذا المنظور الجديد للتواصل قائلا:

(١) بهذا الصدد انظر: مانفريد فرانك، حدود التواصل، ترجمة عز العرب الحكيم بناني، الدار البيضاء، ٢٠٠٢، ص ١٥.

"إن تحول المنظور الذي انتقل من الفعل الغائي إلى الفعل التواصلية بدأ مع ميد و دوركهام. فهؤلاء إلى جانب ماكس فيبر ينتمون إلى جيل المؤسسين للسوسيولوجيا الحديثة"^(١).

بهذا الخصوص، يحمل على نظريات اجتماعية يتهم تناولها للفعل التواصلية بالقصور و الاحادية الجانب، و يقصد هنا: النظرية الوظيفية... فطرق تناول مسألة التواصل لدى هذه النظرية و شببيها، لا تقدم، حسب هابرماس، رؤية واضحة لأنها ظلت سجيبة التصور الفلسفي الأرسطي لمفهوم الفعل الغائي، أو الموجه بغاية، و الذي يشكل إحدى دعائم الفلسفة الارسطية.

ما المقصود بالفعل التواصلية لدى هابرماس ؟

يحدد هابرماس الأفعال التواصلية على النحو التالي: "هي تلك الأفعال التي تكون فيها مستويات الفعل بالنسبة للفاعلين المنتمين إلى العملية التواصلية غير مرتبطة^(٢). بحاجيات السياسة، بل مرتبطة بأفعال التفاهم". و لاتفاهم بدون لغة؛ و هذا ما يبرر كلام المهتمين بهابرماس عن المنعطف اللساني لديه، و الذي يشير إليه هو بنفسه. و هو ما دفعه إلى إدخال اللغة كعامل لفهم العلاقات التواصلية. فلنعزز تصوره للفعل التواصلية من أجل فهم أفضل للعلاقات الاجتماعية داخل المجتمع ذهب إلى أن الفعل التواصلية يتميز عن غيره من الأفعال الأخرى بأنه لا يسعى للبحث عن الوسائل التي تمكنه من التأثير في الغير، بل يبحث عن كيفية التوصل إلى تفاهم معه و توافق متبادل دونما إكراه أو قسر كيفما كان نوعهما.

إذا كان التفاهم الغاية القصوى للفعل التواصلية، فإنه لا يمكن تصوره بين الأطراف المتحاوره إلا بشروط من أهمها عدم تأثير طرف على آخر لأن ذلك لو حصل يؤدي حتما إلى فشل التواصل يقول هابرماس:

(1) J. Habermas, Theorie de l'agir communicationnel, Trad. J.M. Ferry, Paris, 1987, T.1, p.9

(2) Ibid, p.10

"إن نشاط التفاهم المتبادل يخضع لشرط أساس به يحقق المعنيون مشروعا لا تفاهم المشترك... فهم يسعون لتفادي خطرين: يتمثل أولهما في فشل التفاهم المتبادل و سوء الفهم؛ بينما يتمثل الثاني في فشل مشروع الفعل و الاخفاق التام. فتتحية الخطر الأول شرط لابد منه لتلافي الثاني"^(١).

شتان إذن ما بين الاتفاق الذي هو سليل التفاهم، و التأثير الذي هو سليل الاكراه و الضغط، يتسم فيه الفعل التواصلي بالهيمنة. فالتفاهم صنو و رديف للفعل التواصلي من حيث أنه يهدف إلى تحقيق الاتفاق؛ و هو ما يطلق عليه هابرماس أيضا اسم الاجماع، إذ في ظل غياب هذا الأخير بين أطراف الفعل التواصلي، يفشل هذا الأخير. ثمة إذن شروط حجاج و مناظرة بدونها لا يتحقق الأجماع العقلاني. ذلك أن الاستعمال اللغوي إذا كان يتضمن حججا مبنية، فانه سيؤدي حتما إلى تحقيق اتفاق مشترك. لأن الهدف بالنسبة لهابرماس من الدخول في تاجج، هو التوصل إلى تواصل كامل.

عارض الفيلسوف الفرنسي المعاصر جون فرنسوا ليوطار J.F Lyotard مفهوم الاجماع لدى هابرماس معتقدا أن جوهر الأمور هو الأختلاف و النزاع، و لا إبداع بدونهما، متهما في نفس الوقت هابرماس بأنه يدافع عن مشروع الحداثة المؤسس على فكر الانواريين و يسعى إلى بناء خطاب فلسفي يتخذ الاجماع هدفا له؛ بينما يعتبر ليوطار الحداثة خطابا متجاوزا تظل كل محاولة لرد الاعتبار له محاولة يائسة. أن جوهر الأبداع و التطور، في اعتقاد ليوطار، هو الأختلاف و ليس الأجماع^(٢).

أي دور للفلسفة في فعل التواصل ؟

ما مهمة الفلسفة عند هابرماس، فيلسوف التواصل، في زمن التحولات الكبرى؛ على صعيد الفلسفة و على صعيد الخارطة

(1)Ibid, p.417.

(٢) مانفريد فرانك، حدود التواصل، مصدر أنف، ص ٧٦ و ٥٤.
M.Franck, La condition post moderne, Paris, 1979.

الجوسياسية العالمية عقب سقوط حائط برلين و إنهاء الايديولوجيات الكبرى؟

حمل هابرماس حملة شعواء على الميتافيزيقا تستعيد تقليد مدرسة فرانكفورت بهذا الخصوص حيث التأكيد على أنه ليس من شأن الفلسفة اليوم أن تتأمل في معرفة المطلق ، بل عليها أن تقلع عن التفكير فيه. و هو يتهم التيارات الفلسفية المختلفة التي عاصرها بتفاوتها مع اللحظة التاريخية لالمانيا. و قد تبلور لديه، انطلاقا من ذلك، ما يمكن تسميته فكرا ما بعد ميتافيزيقيا.

اعتقد هابرماس أن الفلسفة المطلقة كانت تشكل عائقا أمام تطور العقلانية حين تصورت أنها تمتلك الحقيقة و العقلانية التي يريد هابرماس في المجتمع المعاصر، مجتمع ما بعد الحرب العالمية الثانية ليست عقلانية مطلقة، تدعى الفلسفة بناءها لوحدها بل عقلانية تواصلية نقدية اجرائية مندمجة في العالم المعيش. و لتوسيع هامش هذه العقلانية الجديدة و بلورتها، انتقد الاتجاهات الوضعانية الجديدة المعجبة بالعلم إلى حد تأليهه. و هو ما خصص له كتابين هما:

- العلم و التقنية كايديولوجيا؛
- المعرفة و المصلحة (1).

و الملاحظ أن نقد الوضعانية تقليد متواتر لدى أعضاء مدرسة فرانكفورت. فقد سبق لهربرت ماركوزه أن خصص صفحات رائعة في كتابه العقل و الثورة لمناقشة أوحسن كونت و نقد الوضعانية الكلاسيكية؛ كما افرد كتاب الإنسان ذو البعد الواحد لنقد التقنية و التيارات المعجبة بها و بالعلم...

يؤكد هابرماس أن الفلسفة لا يمكنها أن تكون علوما حقة مثلما يدعى الوضعانيون و ما تأكيده المتكرر على خصوصية العلوم الإنسانية سوى محاولة لأبعاد شبح التطرف العلمي الوضعاني عنها؛ وسحب البساط من تحت أقدام العقل التقني بغية بلورة نظرية فلسفية نقدية تعمل على تحرير الإنسان و تحرير محيطه من هيمنة العلم

(1) J.Habermas, La science et la technique comme ideologie, Trad. J. Ladmiral, Paris, 1973 ; J.Habermas, Connaissance et intérêt, Trad. J. Ladmiral, Paris, 1976.

والتقنية؛ أنها نظرية تقرر النظر بالعمل؛ إذ في المصلحة التحريرية والانعقائية للإنسان تجد الفلسفة مكانها، حسب هابرماس. فعلى الفلسفة مسؤولية التصدي لكل هيمنة تقنية تعمل على تشيئ الإنسان وتحويله إلى سلعة. بذلك ستسعى الفلسفة إلى خلق حوار داخل مجتمع خال من الهيمنة، و تلعب دورا بارزا في إزالة كل الآثار التي شوهت الحوار الذي بإمكانه أن يوصل النوع البشري إلى مستوى النضج والرشد و يعني هذا، من بين ما يعنيه أن مستقبل الفلسفة يظل رهينا بالممارسة السياسية⁽¹⁾. خصوصا و أن الإنسانية تعيش في ظل أوضاع تتسم بالتطور الاقتصادي و العلمي و التقني، أي نعيش في ظل أوضاع تتسم بتسييس العلم و التقنية و علمية السياسة، و منح صلاحية اتخاذ القرارات الكبرى للتقنوقراط.

هكذا يتبين أن نظرية التواصل عند هابرماس انبنت على موقف جديد من الفلسفة، يعيد تحديد مهامها و أهدافها بحيث تندمج في افق نقدي جديد فتلعب دورا ايجابيا و فعالا ضمن مباحث أخرى كعلم الأجتتماع و مجمل العلوم الانسانية في إطار تكاملي، و ليس في إطار الهيمنة على تلك العلوم. و بذلك ابتعد هابرماس عن كنط و هيغل و هذا ما عنيناه في البداية بابتعاده عن فلسفة الوعي.

عندما ترجم كتابه العمدة نظرية الفعل التواصل إلى الفرنسية، و ضع له مقدمة أعلن فيها أنه لا يريد صياغة نظرية جامعة مانعة، بل سيكتفي باقتراح العناصر النظرية الضرورية التي تساعد الفلسفة على اعادة النظر في ذاتها و فهم ذاتها و ذلك بالدخول في تعاون مع العلوم الاجتماعية على قاعدة الأهمية التي تحظى بها هذه الأخيرة في النظرية النقدية.

بذلك اطلق هابرماس الفلسفة من عقالها الميتافيزيقي و أخرجها إلى الفضاء العمومي . و هذا الأخير مفهوم جديد أهتم به هابرماس في كتاباته الفلسفية كدريف و مرادف للممارسة أي التأثير الذي يمكن أن تقوم به الفلسفة في الفضاء العام و المجتمع المعاصر لأنها مطالبة بأن تلعب أدوارا مخالفة لتلك التي لعبتها في المجتمعات السابقة. لم يعد بمقدور الفلسفة إدعاء الشمولية أو التأسيس (هيغل – كنط)؛ بل هي ملزمة بأن تتخرط في هموم المجتمع كالديمقراطية إذ لا فضاء عمومي

(1) J.Habermas, Profils philosophiques et politiques , Trad .J.Ladmiral, Paris, 1974, p. 45.

سليم لا تعمه الديمقراطية و أخلاقيات الحوار و يتمتع بحقوق الإنسان كما ينبذ العنف.

من هذا المنظور قام هابرماس بمحاورة أبرز الفلسفات الالمانية التي عاصرها. و في هذا السياق قام بما اسماه إعادة البناء النقدي للمادية التاريخية مستلهما في ذلك التراث النقدي لمدرسة فرانكفورت، و تراث عصر الأنوار. و قد ضمن تلك العملية كتابا سماه: ما بعد ماركس^(١). أكد فيه أن الماركسية لم تستنفد كل طاقاتها و إمكاناتها التحفيزية بوصفها فلسفة تحررية؛ و المطلوب، في اعتقاده، هو جعلها تساير عصرها و لا تتخلف عنه. أن هذا الأمر يعني بالنسبة لهابرماس إعادة تأهيل الماركسية لكي تساير متطلبات المجتمع الالمانى ما بعد الحرب العالمية الثانية؛ و هو ما اقتضى تطعيمها بعدة مفاهيم مستقاة من نظرية الفعل التواصلي يقول: "رغم أن نظرية التواصل وظيفة حل المسائل ذات الطابع الفلسفي و التي تهم ابستمولوجيا العلوم الاجتماعية و أسسها فاني أرى لها علاقة وثيقة جدا بالمسائل التي تطرحها نظرية التطور الاجتماعي"^(٢).

في هذا السياق تساءل هابرماس: كيف يكون الفعل الاجتماعي التواصلي ممكنا؟ أشرنا آنفا إلى ما يسمى في تطور هابرماس الفكري بالمنعطف اللساني؛ نشير إلى أنه حصل بتأثير من غادمير H.G. Gadmer عليه خصوصا في الاعتقاد بأن منطق العقلانية الاجتماعية يتجلى في اللغة اليومية الطبيعية، أن هذه الأخيرة هي عماد كل تفاعل اجتماعي سيتحول اهتمامه عندئذ نحو مبحث اللغة و التداول الذي ظل الغائب الأكبر في النظرية النقدية لمدرسة فرانكفورت، مع جيلها الأول.

و هذا ما قاده إلى تحويل علم الاجتماع و نظريته الاجتماعية إلى فلسفة للتواصل^(٣). لهذا تبنى الأطروحة التداولية في اللغة لكل من أوستين و فثغنشتين. و بذلك انتقل من فلسفة المعرفة بمعناها الكلاسيكي إلى فلسفة التواصل. و هو انتقال حصل بتزامن مع انعطافه اللساني؛

(١) ترجمة محمد ميلاد، دار الحوار، اللاذقية، ٢٠٠٢.

(2) J.Habermas, Après Marx , Trad .J.Ladmiral, Paris, 1985, p.26-27.

(3) M.Pusey, Jurgen Habermas, London, 1987, p.64.

تجلى واضحا مع صدور كتابه المعرفة و المصلحة في مطلع السبعينات، إضافة إلى مجموعة مقالات نشرها مجتمعة بعد صدور كتابه نظرية الفعل التواصلي (١٩٨١)، و كان ذلك سنة ١٩٨٤.

يعتقد هابرماس أن الفكر ما بعد الميتافيزيقي هو مفتاح الانعطاف نحو الاهتمام باللغة و التواصل كما أن التحول من فلسفة المعرفة الى فلسفة التواصل ينطوي على تجاوز لفلسفة الذات و الوعي بمختلف أشكالها و وجوها رغبة في بناء فلسفة تواصلية مؤسسة على مبدأ البيذاتية INTERSUBJECTIVITE الذي تعد اللغة أحد مكوناته الأساسية؛ و في هذا السياق كان اهتمام هابرماس بالتداولية و نظريات الافعال اللغوية.....

أن المدخل الى فلسفة التواصل لدى هابرماس هو نقد فلسفة الذاتية، و هو نقد اتخذ طابعا راديكاليا حينما انفتح على رؤوس الفلسفة التحليلية أمثال فتغنشتين و اوستين و سورل... فقد اعتبران التقليد الديكارتي طبع تاريخ الفلسفة بان حول المعرفة إلى عملية تتم بين ذات وموضوع^(١).

إن المذهب الذي يقترحه هابرماس بديلا لفلسفة الذات هو الفلسفة العقلانية التواصلية نظرا لأنها تقوم على العلاقة بين الذوات كما تسعى إلى ضبط علاقة الفرد بالغير و اخضاع العلاقات الاقتصادية والاجتماعية و السياسية داخل المجتمع إلى اخلاقيات النقاش و الحوار بوصفه مدخلا لكل تعاقد اجتماعي يحتكم اليه الجميع لذا و بعيدا عن كل استحضار لعقل خالص، يسعى هابرماس إلى تأسيس عقلانية تواصلية لا صلة لها بالميتافيزيقا. أن كل عقل هو عقل بيذاتي أي حصيلة تفاعل بين الذوات داخل المجتمع.

بسبب الدور الذي لعبته الاتجاهات التحليلية في الفلسفة، وبسبب ما اتت به النظرية التداولية، فرضت هذه الاخيرة نفسها كبعد ثالث مكمل للتركيب و الدلالة. و في هذا الصدد ساهمت اعمال اوستين في كشف الغطاء عن الابعاد التداولية للغة؛ و بذلك تحولت التداولية إلى مبحث جديد يولي عناية كبرى للشروط خارج اللغوية، المتعلقة بالسياق و الاعراف التفاهمية و مقاصد المتكلمين...

(1)J.Habermas, La science et la technique comme idiologie, p. 167.

هابرماس مدين لهذا المبحث في تحوله إلى فلسفة التواصل و
في هجرانه لنظرية المعرفة و الايديولوجيا...

لقد أملى هذا الانفتاح على التداولية، مشروع هابرماس الرامي
إلى بناء عقلانية في المجتمع المعاصر؛ و هو أمر لا يتحقق دون
ضمان شروط التفاهم باعتبارها تضمن نجاح الممارسة التواصلية
اليومية.

و تتمثل أهمية التداولية، بالنسبة لهابرماس، في ابراز الشروط
الممكنة للتفاهم أو ما سماه بالفعل التواصلية. و لتحقيق التفاهم كان
انعطاف هابرماس اللساني باعتبار اللغة وسيطا بين الذات عبره
يتحقق التفاهم داخل المجتمع و على هذا الأساس أهتم بالافعال الكلامية
على طريقة أوستين و سورل و سعيا لبلوغ هذا المرمى، حدد
هابرماس للتداولية المهام التالية:

١. وصف الاشياء بواسطة اللغة.

٢. التعبير عن مقاصد المتكلم.

٣. تأسيس علاقات بيذائية بين المتكلمين المتحاورين.

و كل عملية تواصلية لا تقوم لها قائمة، في تصور هابرماس،
دون توفر هذه الشروط-الدعوى و الالتزام بها؛ بذلك تنم العملية
الحوارية من دون اكراه أو ضغط. و في هذا الصدد يقول في منطق
العلوم الاجتماعية: "يتعين على كل متكلم أن يختار تعبيراً مفهوماً
واضحاً لكي يتمكن المتكلم و المستمع من التفاهم فيما بينهما، إذ يجب
على المتكلم أن يكون لديه قصد تبليغ مضمون قضوي حقيقي لكي
يتضمن المستمع من مشاطرته معرفته، كما عليه أيضاً أن يفصح عن
مقاصده لكي يتمكن المخاطب من تصديق اقواله. و أخيراً يتعين على
المتكلم اختيار عبارات صحيحة تلتزم حدود المعايير و المقاييس
الجاري بها العمل لكي يتمكن المخاطب من قبول تلك العبارات بكيفية
تجعل المتكلم و المخاطب في وضعية تؤهلهم للاتفاق"^(١).

على هذا النحو تستطيع الذات المتفاعلة تحقيق التفاهم. و قد
أعتبر هابرماس أن نظرية الافعال اللغوية واعدة في هذا الصدد.
خصوصاً وأن هابرماس ينظر الى اللغة لا في بعدها المعرفي كما
يفعل تشومسكي، بل في بعدها التواصلية و الاستعمالي التداولي

(1) J. Habermas, La logique des sciences sociales , Trad. Rochitz,
Paris, 1987, p. 331

متسائلا عن شروط الممارسة الاجتماعية القائمة على التداول السليم لشروط التداول المثالي للغة.

وجدها برماس في نظرية الافعال اللغوية سندا و دعما لنظريته في الفعل التواصلي، فإذا كان أوستين قد ربط اللغة و المعنى بالبسياق، فإن هابرماس سيدمج آراء أوستين و سورل في نظرية الفعل التواصلي، معتبرا أنه ما دام الفعل التواصلي موجها نحو التفاهم، فإن الفعل الكلامي ينبغي الحكم عليه باعتباره حكما مقبولا عندما- يحصل ذلك التفاهم^(١).

ما المقصود بالعقلانية التواصلية؟

يعتبرها برماس هذه العقلانية سمة من سمات الفكر ما بعد الميتافيزيقي؛ و يطلق عليها أحيانا العقلانية الاجرائية، أي المتجسدة في الممارسة الحجاجية.

هذا و يخلص هابرماس إلى التمييز بين فعل تواصلي قوي، وفعل تواصلي ضعيف، و هو تمييز أتى في كتابه الحقيقة و التبرير^(٢).

و يستنتج من مجمل التفصيلات التي قدمها بخصوص الفرق بينهما أنه استثمر مباشرة نظرية الافعال اللغوية في نظرية الفعل التواصلي، حيث أنه ربط الفعل التواصلي القوي بشكل كبير بالفعل الانجازي و بالاستخدام التواصلي للغة المتصل مباشرة بالعالم الاجتماعي المرتكز إلى العالم المعيش و المتكون من القيم و المعايير المشتركة بين الفاعلين في المجتمع. و عليه فإن هذا النموذج العقلاني التواصلي يسعى إلى تحقيق التفاهم و الاتفاق بين أفراد الجماعة التواصلية بخصوص قضايا معينة، لأن تحقيق هذا التفاهم يعد أحد تجليات نجاح الفعل الكلامي عند هابرماس.

لذا فجوهر الفعل التواصلي العقلاني هو الفعل التواصلي القوي باعتبار هذا الأخير محايثا للعقلانية التواصلية و التي يكون المشتركون

(1)Ibid, p.430.

(2)J.Habermas, Verité et justification, Trad .Rainer Roschlitz, Paris, 2001, p. 56.

فيها متوفرين على فرصة امكانية النقد، نقد لادعاءات مخاطبيهم عكس ما في الفعل التواصلي الضعيف.

من خلال هذه الاهمية التي أضحت للتخاطب في الدراسات اللسانية المعاصرة المهمة بالتواصل، ارتبطت العقلانية التواصلية في الفكر ما بعد الميتافيزيقي، لدى هابرماس، بالتواصل إلى حد أنه تم الربط بين العقلانية و المستوى التواصلي في الكلام.

في هذا السياق، انشغل هابرماس بسؤال الأخلاق، لكن لا في بعده الميتافيزيقي، بل في بعده التواصلي، إذ معه سيدشن ما اصطلح عليه أخلاقيات النقاش. و يشكل ذلك منعطفا بارزا في تفكيره، ضمنه كتابه الوعي الأخلاقي و الفعل التواصلي⁽¹⁾. بين فيه أن هدفه هو توظيف منطق نظرية الفعل التواصلي قصد بلورة نظرية الفعل التواصلي انطلاقا من أخلاقيات النقاش أو الحجاج.

تقاليد فلسفي الماني، يعدها برهامس و كارل اوتو آبل DISKURSETHIK أخلاقيات النقاش.

من أبرز ممثليه. لكنه يضرب بجذوره ايضا في الفكر الانجلوسكسوني، KARL OTTO APEL.

النقاش في R. RORTY و رتشارد رورتي J.RWALS والامريكي بالذات مع جون رولز.

أخلاقيات المناقشة. لا ينظر إليه هابرماس على إنه موضوع للتنظيم بل يعتبره منهجا أو إجراء يسمح بتحديد معايير عادلة لزاوية النظر الاخلاقية. لذا لم يدع هابرماس إلى وضع معايير ل اخلاقيات النقاش، تكون نابعة من الذات عل نحو ما فعل كمنط و التقليد الفلسفي عامة؛ أنه سعى إلى جعلت نظرية تبحث في الطرق و الاجراءات السلمية التي تمكن الذات المتفاعلة فيما بينها من التواصل عبر الحوار إلى صياغة تلك المعايير الاخلاقية⁽²⁾.

(1) J.Habermas, Morale et communication , Paris, 1986. (ed.Flammarion)

(2) J.Habermas, L'Ethique de la discussion , Trad . M.Hungadi, Paris, 1992, p .35-36.

هذا ما جعل بعض المهتمين بافكار هابرماس، يذهبون إلى اعتبار اخلاقيات النقاش تأسيساً للمجتمع المدني؛ جان كوهان، على سبيل المثال، يذهب إلى أن تلك الأخلاقيات تمثل نظرية سياسية تعمل على التأسيس لمجتمع ديمقراطي مدني يستوعب التعدد و يكرس الحوار⁽¹⁾. رفض هابرماس هذا الاختزال السياسي لأخلاقيات النقاش معتقداً أنها نظرية في التواصل، على وجه العموم، و قد يكون البعد السياسي أحد أبعادها.

إن السؤال الاساسي لتلك الأخلاقيات هو على أي مرتكز يمكن تأسيس المعايير و الأوامر؟

المعايير الاخلاقية هي تلك التي يقبلها أعضاء الجماعة التواصلية المعنيون بها بحيث تراعي مصالحهم المشتركة و يكون لها طابع كوني⁽²⁾.

بهذا المعنى يغدو النقاش العملي أداة ذات مكانة جوهرية في سن المعايير و تبريرها، لأن التبرير عملية بيذاثية تداولية غير منفصلة عن الاجتماع؛ كما أنه وسيلة ملائمة لتأسيس تصور مجتمع حدائي في عصرنا هذا، عصر تراجع دور التقليد و العادات في شد أو اصر العلاقات الاجتماعية؛ عصر تعدد المعتقدات و الاعراف و التجمعات داخل نفس المجتمع؛ عصر تصاعد النزاعات الدولية مما يهدد الاستقرار و السلم العالميين؛ عصر تصاعد المصالح التجارية و الاقتصادية؛ عصر الاستغلال المفرط للبيئة و تفاقم الاحتباس الحراري الكوني.....

من هنا تأتي أهمية أخلاقيات النقاش و الحوار، فمعاييرهما هي ما قد يكفل التوازن الدولي و يدعم تنمية المجتمعات. ذاك هو رهان أخلاقيات النقاش شريطة أجماع الكل على قواعد و معايير و ضوابط يلتزم بها المتحاورون في إطار فعل تواصل.

هذا و قد دعم هابرماس أطروحاته هذه بالنظرية الحجاجية فاستمد منها القواعد الصورية التي يجب على المتحاورين الالتزام بها

(1) J.Cohen, Discourse ethics and civil society , in, civil society and political theory, London, 1999, p. 219.

(2) Davis, FJ, Discourse ethics and ethical realism, p.244.

قصد تحقيق الاجماع أو اتفاق العقول. و بانفتاحه على النظريات الحجاجية، كان هابرماس يهدف إلى تأسيس مبدأ استدلال في أخلاقيات النقاش، يتشبه بذلك الموجود في العلوم الحقة^(١).

و القواعد التي اقترحها هابرماس هي التالية:

١. لكل من هو قادر على الكلام و الفعل نصيب كامل في النقاش.
 ٢. لكل الحق في اشارة أي اشكال أو اعتراض على أي تأكيد كيفما كان؛ يندرج ضمن هذا الحق حق الاعتقاد في آراء ما ولتعبير عنها.
 ٣. لا يحق منع أي كان ممن المتحاورين من النقاش و لا استعمال أسلوب الاكراه عليه^(٢).
- تفترض جميع هذه القواعد المشاركة و الندية بين المتحاورين: لكل الحق في أن يدلي بدلو و يفصح عما عنده دون تضيق أو مضايقة قصد تحقيق الاجماع.
- إضافة إلى القواعد السالفة، زاد قاعدتين أخريين في صيغة افتراضيين مفادهما أن الدعاوى المعيارية للصلاحيات تتضمن معنى معرفيا و يجوز التعامل معها بوصفها دعاوى للحقيقة؛ لذا ضرورة الدخول في نقاش حقيقي لتأسيس المعايير و الاوامر اعتمادا على العقل المتواصل المتحاور و ليس على العقل الفردي^(٣). و تعني صفة معرفية أن الشيء قابل للقبول أو الرفض خلال عملية الحوار التي هي أخذ و رد.
- إن التركيز في اخلاقيات النقاش على أهمية الحجة و الحجج في صياغة المعايير الاخلاقية و الاجتماعية دفع البعض إلى القول بأن أخلاقيات النقاش ما هي، في حقيقة أمرها، سوى تداولية فلسفية صيغت على شكل منعطف لساني تداولي أساسه التشديد على أهمية القوة غير القسرية للحجة الأقوى.

(1) J.Habermas, Morale et communication, p.108-110.

(2) J.Habermas, Morale et communication, p.111.

(٣) نور الدين افاية، الحداثة و التواصل، بيروت- الدار البيضاء، ١٩٩١، ص.٢٠٦.

يبدو أن أخلاقيات النقاش عند هابرماس تهتم بالمعايير، معايير الفعل التواصل، و هو أمر لن يتم، بالنسبة لهابرماس إلا في إطار الدولة الدستورية، حيث يكون بإمكان المواطنين المشاركين في سياسة تشاورية أن يصلوا إلى تأسيس معايير تحظى بأحترام الجميع و قبولهم (١).

فالمعايير ليست قرارات شخصية، بل هي مؤسسة على إمكانية تبريرها تبريرا عقلانيا اعتمادا على عملية حوارية حجاجية (٢). لذا فخلافا للتمييز اللفظي الشهيل بين العقل الخالص و العقل العملي، يعمد هابرماس إلى دمجها في بعضهما؛ أي أن صلاحية المعايير الأخلاقية يحكمها تصور عملي ذو صلة بممارسة النقاش و الحجاج أي تقوم في الواقع على الاعتراف بالمعيار في إطار نقاش يعترف ضمنا به و تقبله جميع أطراف الحوار ثم أن ما يهم هابرماس هو سن معايير كونية قادرة على حل المشكلات التي فيها تتخطى البشرية و تعمق ثقافة السلام بين الأمم و الشعوب.

و عليه فإن أخلاقيات النقاش، هي في العمق، أخلاقيات المسؤولية؛ و هذا ما أكد عليه زميل هابرماس و الحقيقة أن أخلاقيات المسؤولية تحولت في KARL OTTO APEL رفيقه في الدرب كارل اوتو آبل.

الآونة الأخيرة الى تقليد فلسفي في ألمانيا؛ و هي من إبداع الفيلسوف الألماني هانز يوناش.

في كتاب شهير له يدعى مبدأ المسؤولية له عنوان فرعي هو: أخلاقيات الحضارة HANS JONAS.

التكنولوجية (٣). يريد صاحب هذا الكتاب بهذه الاخلاقيات أن تكون بديلا للأخلاقيات التقليدية الميتافيزيقية و أن تكون أخلاق المستقبل نظرا للتحديات التي افرزها العلم في الآونة الراهنة التي لم

(1) J. Habermas, Verité et justification, Trad. R. Rochlitz, Paris, 2001, p. 206.

(2) Ibid, p. 206

(3) H. Jonas, Principe de responsabilité : une éthique pour la civilisation technologique, Trad. J. Greich, Paris, 1990.

تعد فيها البشرية منكبة على حل مشكلاتها الاجتماعية والسياسية والاقتصادية فحسب، بل انضافت لها مشكلات البيئة و التلوث و الانحباس الحراري.... أي ما انتبه إليه تقرير نادي روما لسنة ١٩٧٢. لذا سيعمل كارل اوتو ابل على دعم اخلاقيات النقاش بما ورد في مبدأ المسؤولية، في إطار حوارى تواصلى يدعو إلى تجند جميع الاطراف للتفاهم حول سبل مواجهة الخطر المحيق بالبشرية^(١).

يمثل الارتباط الذي إقامه ابل بين النقاش و المسؤولية تصورا مخالفا لتصور يوناش الذي يربط المسؤولية بالذات على الطريقة الكنطية؛ بينما يجعل ابل المسؤولية عبر النقاش مسؤولية جماعية مشتركة؛ أي أن كل عضو في جماعة التواصل يتحمل جانبا من المسؤولية فيما يحدث حالا أو مآلا و لا يستثنى أحد من المسؤولية، فالامر يتعلق اليوم ،حسب ابل، "بتنظيم، و في إطار نقاش عملي، تنظيم مسؤولية للتضامن أزاء الأفعال الجماعية"^(٢).

ثمة، إذن، بعد سياسي لا ينكر في نظرية هابرماس و زميله كارل اوتو ابل لاخلاقيات النقاش خصوصا حينما ربطاها بمبدأ المسؤولية. بمعنى أن الجميع مطالب بأن يتحمل مسؤوليته التاريخية في وضعية عالمية لم تعهدها البشرية من قبل كما لا يمكن تصور نتائجها على الاجيال المقبلة^(٣).

و ليس الهاجس، هنا، هاجسا فلسفيا أو ميتافيزيقيا، بل هو هاجس تواصلى؛ و قد أوضح هابرماس ذلك بصيغة لا لبس فيها حينما قال: "لقد شرعنا في السنين الأخيرة، أنا و زميلي كارل اوتو ابل في محاولة إعادة صياغة ما نسميه تأسيس المعايير، أي الأخلاق الكنطية، اعتمادا على وسائل مستمدة من نظرية التواصل"^(٤). ذلك أن المشاركين في النقاش أو المتناظرين هم أناس واقعيون تختلف رغباتهم

(1)K.otto Apel, Discussion et responsabilité : l'éthique après Kant, 1996

(2)Ibid, p.30.

(3)K.otto Apel, Discussion et responsabilité, Paris, 1998, p.39-56.

(4)J.Habermas, Ethique de la discussion, op.cit, p.15.

و دوافعه ومصالحهم مما يعطى للنقاش قيمته.

خاتمة

يمكننا أن نستشف من أفكار هابرماس بخصوص أخلاقيات النقاش، و الفعل التواصلي أنهما مبحثان مترابطان استند فيهما إلى معطيات المنعطف اللساني و كذا إلى النزعة الليبرالية للفيلسوف الأمريكي رولز؛ أن أنهما مبحثان لهما أمتداد في الحقل السياسي.

فنظرية الديمقراطية التشاورية التي كرس لها هابرماس أعماله المتأخرة، إبتداء من التسعينات، تعد أهم انجاز في ميدان الفلسفة السياسية المعاصرة. و تعد نظرية الديمقراطية التشاورية توسيعا لمجال الفعل التواصلي؛ إذ لا يمكن فصل التشاور عن هذا الفعل التواصلي الذي نظر له هابرماس قبل أخلاقيات النقاش.

بعد كتاب نظرية الفعل التواصلي (١٩٨١) ثم بعد الانشغال بأخلاقيات النقاش سيصدر هابرماس كتاب الديمقراطية التشاورية وقد اراد منه ان يكون بديلا للديمقراطية الليبرالية التي دافع عنها رولز في كتاب نظرية العدالة.

أن الفكرة المحورية لمشروع هابرماس في كتابه هي تأسيس الديمقراطية على أساس جماعة متواصلة خالية من أية هيمنة عدا هيمنة أفضل حجة. كما أن مفهوم التشاور المرتبط بأخلاقيات يعد مفهوما مركزيا لديه. ففي التشاور يعطى لكل عضو في الجماعة الحق في الكلام و الفعل بخصوص القضايا السياسية و... المطروحة في الفضاء العمومي. و في ظل ذلك النقاش العقلاني المؤسس يتشكل رأي العام والارادة السياسية العامة للمواطنين في المجتمع الديمقراطي الذي يلعب فيه التشاور دورا مركزيا.

هكذا تمثل مساهمات هابرماس في مجال الفلسفة السياسية وخاصة في نظرية الديمقراطية التشاورية مساهمة نوعية تدرج في اطار نقد أشكال الأنظمة الكليانية كالنازية...

يقوم نموذج الديمقراطية التشاورية على الرغبة في تجاوز الليبرالية المتوحشة و النزعات الكليانية. فالتضامن هو أساس الاندماج

الاجتماعي في الديمقراطية التشاورية بصفة أعضاء المجتمع مواطنين في الدولة أي أصحاب الحق الأحرار المتساوين أمام القانون.

فالنموذج التشاوري للديمقراطية، هو في اعتقاد هابرماس نموذج تواصل. في هذا المنظور مفهوم السلطة. فإذا كان في كتاباته الأولى نحا على السلطة باللائمة معتبرا اياها مرادفا للهيمنة باعتبار ركيزتها هي المال و الاعلام؛ و هي كلها عوائق أمام تحقيق التواصل الشفاف في المجتمع، فإنه في أعماله COMMUNICATIVE POWER المتأخرة عدل موقفه بأن تحدث عن السلطة التواصلية.

التي أصبحت مفهوما متداولاً في آرائه بخصوص الديمقراطية التشاورية. أن السلطة التواصلية سلطة غير قمعية و غير قهرية؛ ليس قوامها الاكراه و الهيمنة، لأنها نابعة من الفعل الجماعي. أنها التواصل السياسي عندما يغدو مؤسسات في دولة الحق و القانون⁽¹⁾.

يعكس مفهوم السلطة التواصلية محاولة من هابرماس لاعادة صياغة و تحديد نظرية التعاقد الاجتماعي عندل روسو بجعل العلاقة بين السلطة و المواطنين علاقة افقية بدل أن تكون عمودية، معتقداً بذلك أن هذا القلب هو ما يضمن أن تكون السيادة للفعل فعلاً.

هكذا نلاحظ التحول الكبير الذي حصل في فلسفة التواصل لدى هابرماس من تأسيس التواصل على اللغة إلى تأسيسه سياسياً؛ و هو تحول آتى في مطلع التسعينات من القرن المنصرم.

(1) J. Habermas, Droit et démocratie, Trad. R. Rochlitz, Paris, 1997, p. 189.